الرحالة الإنكليزي "جيمس سِلك بكنغهام" ووصفه مدن العراق

The English Traveler James Silk Buckingham and His Description of Iraqi Cities

أ.م.د نور الهدى فايق محمد السامرائي
Asst. Prof. Dr. Noor Al-Huda Faiq Mohammed Al-Samarrai
جامعة سامراء / كلية التربية
University of Samarra / College of Education
E-mail: noor.huda63@uosamarra.edu.iq
ORCID ID: http://orcid.org/0000-0002-8246-9923

الكلمات المفتاحية: رحلة، مدن العراق، بكنغهام، بغداد، البصرة
Keywords: Journey, Iraqi cities, Buckingham, Baghdad, Basra.

الملخص

مازال العراق يجتذب إليه طلاب المعرفة والمتعة من مختلف أقطار المعمورة ولذلك يرجع الاهتمام الذي يبذله الرحالون والدارسون بالسفر إلى العراق والتطوّف في أرجائه، إلى أقدم العصور فحتى ما قبل ميلاد السيد المسح بقرون عديدة قام عدد كبير من الأغريق والرومان برحلات إلى العراق ودونوا مشاهداتهم وملاحظاتهم عنه في كتب ضخمة تعد من أوثق المراجع وأغناها عن تاريخ العراق القديم وجده التليد والعابر.

وحين بدأت حركة الانبعاث في أوربا وظهرت الثورة الصناعية في عدد كبير من أقطارها وراحت الأمم الأوربية، نتيجة تلك الثورة، تتطلع إلى الفتح والاستعمار، نشطت حركة السياحة والسواح في الشرق ولا سيما في العراق خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر للميلاد، فقد توارد عليه عدد من الرحالة من مختلف الجنسيات منهم الفرنسي والألماني والإنكليزي والأمريكي

وتضمن البحث من مقدمة وعدد من المطاليب كان الأول زيارته لبغداد والثاني: زيارته وصفه الموصل والثالث: زيارته ووصفه البصرة والخاتمة .

Abstract

Iraq has long attracted seekers of knowledge and pleasure from all over the world. The interest shown by travelers and scholars in journeying to Iraq and exploring its regions dates back to ancient times. Even centuries before the birth of Christ, numerous Greek and Roman travelers visited Iraq, documenting their observations in extensive volumes that are considered among the most reliable and rich sources on ancient Iraqi history and its glorious past.

With the advent of the Renaissance in Europe and the emergence of the Industrial Revolution in many European nations—which, as a result, began to pursue expansion and colonization—tourism and travel to the East increased significantly, especially to Iraq, during the 18th and 19th centuries. During this period, many travelers from various nationalities, including French, German, English, and American, visited Iraq.

This study consists of an introduction and several sections: the first discusses Buckingham’s visit to Baghdad; the second covers his visit and description of Mosul; the third details his visit and description of Basra; and the final section is the conclusion.

المقدمة

ومما هيأ له سـعة الاطلاع على أحوال البلاد التي زارها تعمقه في دراسـة تواريخها ووفرة ما كان يحذقه من اللغات الحية كالفرنسـية واللاتينية والإسـبانية والسـريانية والعبرية والعربية بالإضافة إلى الإنكليزية لغته الأصلية.

كانت أولى رحلات بكنغهام في الشـرق العربي رحلته إلى مصـر التي تلتها رحلته الثانية إلى فلسـطين وشـرقي الأردن ثم رحلته الثالثة إلى سـورية والعراق وقد أصـدر كل واحد من هذه الرحلات الثلاث مجلدين كبيرين . كما أصـدر سـنة ١٨٢٥م كتابا آخر عنوانه « رحلات بين العشائر العربية « وكان في الوقت ذاته عضوا في عدة جمعيات علمية وأدبية في الهند وبريطانيا

وأسـتقر بكنغهام بعد ذلك في إنكلترا وانقطع للكتابة والتأليف وهداه تفكيره المتعمق في الأحوال التي شهدها في الشرق والاضطراب الذي عم أوربا كلها في منتصف القرن التاسع عشر، إلى مجاراة الطوبائيين فيما كانوا يحملون به من أنشـاء عالم مثالي تزول فيه أسـباب النزاع بين البشـر وبواعث الحروب بينهم ويختفي منه الفرق الكبير بين حياة الأقلية التي تسـتأثر بوسـائل الانتاج وموارده الثروة، وحياة الأكثرية التي تكد وتحيا في عذاب وشـقاء، عالم يخيم عليه الاخاء والرخاء والتقدم . وفي هذا الموضـوع أصـدر سـنة ١٨٤٨م، وهي السـنة التي سـادت الثورات الشعبية فيها أكثر أرجاء أوربا، كتابه الذي تخيل فيه أيجاد مجتمع تعاوني متحرر متآلف.

وكان عنوان الكتاب « الشـرور الأهلية والعلاجات العملية لها : مخطط لإقامة بلدة نموذجية «.وقد ظل بكنغهام يبشر بدعوته تلك حتى وفاته سنة ١٨٥٥م.

تقع رحلة بكنغهام إلى العراق وسـوريا، وعنوانها « رحلات فيما بين النهرين « في جزءين كبيرين يضـمان نحو ألف وعشرين صـفحة ويقع القسم الذي يخص العراق من هذين الجزءين في أكثر من ستمائة صـفحة والرحلة محلاة بصـور رائعة لكثير من المواضـع الشـهيرة لعلها من رسم المؤلف ذاته وهي تعكس جانبا هاما من جوانب المجتمع العراقي آنذاك وتصور نمط حياته

وقد بدأ بكنغهام رحلته تلك من مدينة حلب في السـابع والعشـرين من أيار سـنة ١٨١٦م وبعد أن عبر الحدود السـورية في نقطـة « البير « توجـه إلى « اورفـه « التي تقع الآن داخل الأراضـي التركية فأمضـى فيها زهاء سـبعة أيام ثم غادرها إلى مادرين ومنها إلى ديار بكر التي مكث فيها ثلاثة أيام أنتقل بعدها إلى نصيبين ومنها دخل الحدود العراقية عبر سهل سنجار حيث وصل مدينة الموصل في الخامس من شهر تموز.

وحين استأنف بكنغهام رحلته من الموصـل لم يأخذ نهر دجلة ولا الطريق البري المحاذي لـه وإنما أتخذ بدلا عن ذلك طريق الموصـل، أربيل، كركوك، بغداد . وقد كانت مدينة الحلة منتهى رحلته.

ولقد أنفق في الموصل بضعة أيام اطلع خلالها على كل معالم المدينة وآثارها فوصف أسواقها ومساجدها وكنائسها وحماماتها وآثار نينوى القريبة منها وصفا دقيقا مسهبا، كما أفاض في الحديث عن أحدى المرات التي حضر فيها مجلسا.

وفي طريقه من الموصل إلى بغداد وصف الأماكن التي مر بها بشيء من الإسهاب من أمثال أربيل وكركوك وطوزخرماتو وهبهب ودلي عباس وغيرها .وصل بكنغهام بغداد في العشرين من تموز فنزل ضيفا فيها على المقيم البريطاني المستر كلوديوس ريج، وهو رحالة شهير أيضا طاف ووصف مشاهداته عنه في جزءين كبيرين بالإضافة إلى كتاب مستق وضعه عن أطلال بابل . ولقد مكث في بغداد حوالي أربعين يوما قام خلالها بالتنقل في جميع أرجائها وضواحيها وأطلع على الأحوال العامة فيها ولم يترك مظهرا من مظاهر حياتها الا وأسهب في التحدث عنه مدونا ملاحظاته عن أوضاع السكان وطرائق معيشتهم وانطباعاته عن الكثيرين منهم وعن الحوادث التي جرى ذكرها أمامه . ومع أنه لم يسمح له بدخول المراقد المقدسة كالكاظمية وأبي حنيفة والكيلاني وغيرها الا أنه لم يغفل ملاحظاته عما شاهده من ظواهر تلك الأضرحة.

اولا: زيارته لبغداد

بدأ بكنغهام جولته الاستطلاعية في عاصمة العباسيّين بصحبة بعض الرفاق على ظهور الجياد، في العشرين من تموز/ يوليو ١٨١٦، بعد أن أمضى استراحة لعدة أيام في بيت المندوب البريطاني السيد كلاوديوس ريغ (١٧٨٦ – ١٨٢١)، فسار بامتداد المدينة طولاً مجتازاً بذلك الباب الشرقي، ومستديراً حول الأسوار، كيما يعود من الباب الشمالي الغربي الذي يكون منه الدخول إلى المدينة، ويؤدّي من هُناك إلى الموصل. وقد انقضت بقيّة ذلك النهار في التجوال داخل المدينة بصُحبة أدلّاء المقيم البريطاني المحليّين.(بكنغهام، ١٨١٦، ص٦٤).

١–سور بغداد وأبوابها

والملاحظة الأُولى التي دوّنها بكنغهام كانت حول سور المدينة، حيث يقول: "السُّور الذي يُحيط ببغداد يحمل من الدلائل ما يُبرهن* على أنّه قد تمّ تشييده وإصلاحُه في فترات عديدة متباينة، وأنّ أقدم جزء فيه، هو أفضلُ الأجزاء، كما هو الأمر في معظم الأبنية الإسلامية، وأنّ الجزء المتأخّر بناؤه منه أسوأ من سواه. والسُّور مشيّد كلّه بالآجر، ومن أنواع مختلفة طِبقاً للعصر الذي شُيّد فيه. وله أبراج كبيرة مدوّرة تقع عند الزوايا الرئيسة فيه، وأُخرى صغيرة تقع على مسافات قصيرة بين أحدها الآخر وعلى أبعاد بينها تتراوح بين الكِبر والصِّغر، وقد أُقيمت على الأبراج الكبيرة بطّاريّات جُهّزت بالمدافع البرونزية ذات عيارات متباينة، وتُركت من دون انتظام، ولا يزيد عددها عن الخمسين بما في ذلك التحصينات الموجَّهة نحو المنطقة الخالية في المدينة"(صالح،1987،ص34)، ويضيف: "للمدينة ثلاثة أبواب للدخول والخروج منها، أوّلها يقع

في الجنوب الشرقي، والثاني في الشمال الشرقي، والثالث في الشمال الغربي من المدينة. والباب الأخير منها هو الباب الرئيس لأنّه يمتدّ من طريق كثير الحركة إلى جزء مأهول أكثر نشاطاً من غيره من أجزاء المدينة، ويضمّ أرضاً أُعدّت للعبة 'الجريد' التركيّة، وسوقاً كبيرة، وقصر الباشا الذي يقع على مسافة غير بعيدة". ويقول إن خندقاً يُحيط بالسّور لكن لا ماء فيه، وهو ذو عمق ظاهر، ويلفت إلى أنه لا يوجد في هذا الخندق أيّ بناء، أو أيّ نوع من المشتملات.

ويلاحظ بكنغهام أن أجمل المشـيّدات في المدينة هي القديمة الباقية في الأسـوار، حيث تبدو ظاهرة في اثنين من البروج الواقعة في الزوايا، وعلى مسافة غير بعيدة من باب الوسط. فهذان البرجان فخمان في الحقيقة، وجودة الآجر الذي شُـيّدا به وهو من اللون الأصـفر، ودقّة تركيبه تُضارعان أيّ بناء قديم كان قد شاهده قبلاً. ويقول: "الكتابة المستطيلة التي تحتلّ شريطاً عريضاً في الجزء الشمالي من هذين البرجين قد خُطّت بأحسن خطّ عربي قديم. ولم يظهر من صفة تلك الكتابة أنّها كانت ذات الكتابة التي استنسخها نيبور من أحد الأبراج، ويظهر من هذه الكتابة أنّ الخليفة النّاصر هو الذي شيّدها سنة ٦١٨ للهجرة، أو سنة ١٢٢١ للميلاد" .(جيمس،١٩٨٦، ص١٢٥).

٢-مفاجأة داخل المدينة

ينتقل بكنغهام بعد ذلك للحديث عن داخل المدينة التي تفاجئه حالة الإهمال فيها، فهي "لا تُثير الاهتمام بالشّـكل الذي يتوقّعه المرء من الشُّـهرة التي نعمت بها بغداد كعاصـمة لإمبراطورية شـرقية لها غناها وأهمّيتها"، بحسـب تعبيره. ذلك أنّ مسـاحات واسـعة من الأرض الواقعة ضـمن الأسـوار لا توجد فيها أبنية، ولا سـيّما الجانب الشـمالي الشـرقي منها. وحتى في الموقع الذي تكثر العمارات فيه، وعلى الأخصّ الحيّ المأهول أكثر من غيره، والذي يقع على مقربة من النهر، وتظهر فيه أشجار وفيرة .(سليمان فائق بك، ٢٠١٢م، ص٦٨).

ويقول: "لذلك؛ عند النّظر من شُرفات المنازل القائمة ضمن الأسوار إلى هذا الحيّ يبدو وكأنّه أشبه بمدينة تبرز من وسط بساتين النخيل، أو أنّه أشبه بما كانت عليه بابل كما يُظنّ، أي أنّه إقليم مسـوّر، وليس مدينة واحدة". ويلفت رحّالتنا إلى أن جميع الأبنية، العامّة منها والخاصّـة مُشيّدة بالآجُر، وهو من اللّون الأحمر المُصفَرّ، والحجم الصغير، والزوايا المدوّرة، ويقول إن ذلك "يدلّ على أنّه قد اسـتُعمل قبلاً بصـفة مسـتمرّة، أو أنّه ربّما نُقل من خرائب إحدى العمارات لبناء عمارة ثانية، كيما تتألّف من الأجزاء المنهارة عمارة ثالثة."

وحول شـوارع بغداد يقول إن شـأنها هو شـأن كلّ البلدان الشـرقية الأُخرى، ضـيّقة غير مبلَّطة، يتألّف جانباها عادة من جدارَين خاليين من المشـاغل يندر فيها وجود النوافذ التي تنفتح على الشّارع العام، في حين تكون أبواب المساكن صـغيرة وضـعيفة. ويزيد أن هذه الشّوارع أكثر

التواء وتعرُّجاً ممّا هو موجود منها في كثير من المدن التركيّة الكُبرى. وما خلا بعض الأســـواق المســتطيلة المســتقيمة، وبعض السّــاحات القليلة المكشــوفة، فإنّ داخل بغداد يؤلّف عقدَ ممرّات وأزقّة .(بكنغهام،١٩٨٦م،ص١٢).

أما قصــر الباشــا الوالي فيقول إنه يتألف من بناية واســعة، وليســت كبيرة، تقع في الحيّ الشمالي الغربي من المدينة، غير بعيدة عن ضفّة نهر دجلة، وتضمّ داخلها معظم الدوائر العامّة ذات المرافق الواســعة لحاشــيته، وإســطبل جياده وخدمه، وهذه البناية عصــريّة نســبيّاً، وهي بما أضــيف إليها في فترات متباينة تؤلّف مجموعة كبيرة من بناء غير منتظم لا يبرز فيه شــيء من جمال فنّ البناء، وقوّته، أو أهمّيته.(ولستيد، د.ت، ص.349).

٣-مساجد متشابهة

ويصـف بكنغهام بعض مساجد بغداد ويبدأ من جامع سوق الغزل، ويقول إنه سُمّي بهذا الاسم لوقوعه في السُوق التي تُباع الغزولات القطنيّة فيها. ويلاحظ أنّ الهيكل الأصلي للبناية قد دُمّر بفعل التصــدّع، ولم يبق منه في الوقت الحاضــر ســوى المئذنة وجزء صــغير من الجدران الخارجيّة، وأوّل هذه الجدران عمود قصـــير ســـميك ثقيل من أجزاء غير لائقة بُنيت من آجر متقاطع بشـكل زوايا مُنحرفة ومختلف ألوانه كما هو الأمر في منارة الجامع الكبير في الموصـل (صالح، د.ت، ص٢٢٣).

ويقول: "لولب المرتقى إلى الإيوان الذي يُعلن منه الأذان لإقامة الصّــلاة يبدأ من أســفل وسـط العمود، ومن هُناك يرتفع في سـلسـلة محاريب ذات أقواس مدبّبة تتدلّى زخارفها كالرواسـب الكلسية المتدلّية من الكهوف إلى أن تبلغ حوالي ثلثي ارتفاع العمود، ثمّ تتلاشى بالتدريج، وتنتهي عند الإيوان الذي سـبقت الإشـارة إليه. ويكون جزء العمود الذي يعلو هذا قصـيراً وذا رأس مدوّر والمئذنة كلّها تختلف تماماً عن المآذن التركيّة في ســـورية، كما أنّها تختلف بصـــفة أكثر عن المآذن الخفيفة الأنيقة التي تُشـــاهد في أنحاء كثيرة من مصـــر. والســـطح الخارجي لهذه المئذنة يحمل هو الآخر دلائل التصدّع، لكن الجزء الباقي منه يشير إلى أنّ بعض أجزائه الأُخرى كانت مُزيّنة بالنقوش العربية المُدهشـــة، وأنّ إحدى الكتابات التي نقلها نيبور بمســـاعدة أحد الملالي العرب تُبيّن أنّ المسـجد قد شُـيّد من قِبل الخليفة المسـتنصـر سـنة ٦٣٣ للهجرة الموافق لسـنة ١٢٣٥ الميلاديّة، أي بعد حوالي أربع عشـرة سـنة من تأريخ إقامة البرج الذي يُرى في السُـور الخارجي للمدينة، والذي سبق وصفه."(لونكريك، ١٩٨٥، ص١٩٥).

وينتقل بعد ذلك للحديث عن جامع مرجان، وهو مســجد لا يبعد عن هذا كثيراً، فيه آثار مساوية في القِدم لآثار جامع الغزل، وواجهته غنيّة بالنّقوش العربيّة. وهيكل المسجد نفسه حديث، ولا يُظهر القسم الداخلي شيئاً بارزاً، لكن بوابة مدخله جميلة جداً، كما يقول. ويتابع: "هذه البوابة

مؤلّفة من قوس عالية ينتهي كلّ جانب منها بسلسلة من أشرطة فخمة منحوتة نحتاً رائعاً، ترتفع على الجانبين ثمّ تلتقي معاً عند القمّة، وبنفس شـــكل القوس ذاته تقريباً. وفي أعقاب آخر هذه الأشـــرطة قائمة كبيرة ذات قطر كاف يُمكن اعتبارها عموداً، لكنّها لا ترتفع إلى تاج الأشـــرطة الصّغيرة التي سبق وصفها. وهذه القائمة مُخطّطة بصفة لولبيّة على امتداد ارتفاعها، وتبدو على الأجزاء البارزة من هذه التخطيطات كتابات وطقوس دقيقة بُذل جهد كبير فيها كُتبت بنســـق العصـــر الذي وُجِدت فيه. وهُناك فيض من الكتابات التي يســـتطيع أيّ امرئ نقلها إذا تهيّأ له الوقت اللازم لهذا العمل الذي يتطلّب عدّة أسابيع على الأقلّ"(بكنغهام، ١٩٨٦م،ص١٢٧).

٤-سوق البغتة

ويلفت إلى أنّ سوق "البغتة" أو سوق الموسلين، الذي يتألّف من شارع طويل يمتدّ من هذا المسجد، قد أنشئ في ذات العصر. وقد لاحظ في هذا السّوق خاصيّة لم ير مثلها في مكان آخر، وهو وجود شـــريط من كتابات عربيّة قديمة تعلو عتبة كلّ حانوت، وقد حفرت بحروف كبيرة، واعتُني بها مثل أيّ من الكتابات الموجودة في المسجد. ويقول: "لقد نقشت هذه الكتابات بنسق وانتظام إلى درجة تحمل المرء على الاعتقاد بأنّها كانت معاصرة للسّوق نفسه، وهو قديم جداً، ولكن هل أنّ هذه الكتابات تحمل أسماء الذين أشغلوا تلك الحوانيت عند افتتاحها، وهل أنّها تضمّ بعض العبارات المقدّسة، أو تشير إلى تاريخ تأسيسها؟ إنّ نظراتنا الخاطفة إليها لم تدعنا نتأكّد من ذلك."

ويصف بشكلٍ مفصّل "جامع الخاصكي" ويقول إنه يشبه الجامعَين السابقين، ولكنّه ينتبه إلى أن محرابه ذو شـــكل مجوّف واعتيادي يتوّجه قوس روماني، يقوم على عمودين صـــغيرين يُشـــبهان ما رآه على باب القصـــر الرّوماني بالقنوات في جبل حوران، وعلى غيرها من المعابد الرومانيّة، والكنائس المسيحية الأُولى التي رآها، ووصفها أثناء رحلته عبر الأجزاء الشرقية من سورية.(العزاوي، د.ت، ص568).

بعد ذلك يتناول "جامع الوزير" الواقع على مقربة من النّهر، ولا يبعد سوى ياردات قلائل عن باب الجســـر، ويقول إن له قبّة جميلة، ومئذنة عالية. وكذلك "الجامع الكبير" الذي يقوم في ساحة الميدان على الطريق من الباب الشّمالي الغربي إلى القصر ومقرّ المقيم البريطاني، ويعيد القول إن معظم الجوامع الأخرى والتي لم تتسم هُنا بصفة خاصّة، ذات مظهر متشابه نسبيّاً. ويشير إلى أن نمط القباب في بغداد يندرج ضمن الذوق الفارسي .(جيمسص١٢٧

٥-خانات وأسواق

ويفرد بكنغهام مساحة للحديث عن خانات بغداد التي تسمى "كروان سراي"، ويقول إن عددها زهاء الثلاثين لكنّها جميعها مشابهة في بنائها لِما هو موجود منها في ديار بكر أو أورفه.

ويركز في حديثه على "خان الأورطة" الشهير لأنّ فيه أروقة كبيرة وصغيرة قائمة لكلّ منها سلسلة متداخلة من تضاريس مسطّحة الشكل وسطية تُخالف طريقة الخانات التي سبق وصفها في الموصل. ويقول إن البناء يحمل دلائل قدمه، وقد أحسن تشييده من آجر معتم اللّون وملاط أبيض، وهو يحوي الزخارف المعتادة في زمن العمارة العربي والتركي على صفة نقاط من الرواسب، وتجاويف معلّقة، وما شاكلها.

أما أسواق المدينة فهي متعدّدة كما يقول، ومعظمها يتألّف من أزقّة طويلة مستقيمة، ذات عرض معتدل. وأحسن هذه الأسواق معقودة من أعلى بالآجر، غير أنّ أكبر عدد منها مسقّف بأخشاب منبسطة تمتدّ في الوسط من جانب إلى آخر، وذلك لتدعيم السَّقف المصنوع من القشّ والأوراق الجافّة، أو أغصان الأشجار والحشائش. أما الحوانيت في هذه الأسواق فهي مزوّدة جيّداً بالسِّلع الهندية. وحول حمّامات بغداد يقول إنها هي الأُخرى تختلف عمّا هو موجود في جميع المدن الكبرى ببلاد الرّافدين التي مرّ بها حتّى الآن. وقال إن هناك أكثر من خمسين من هذه الحمّامات في المدينة.(نيبور،١٩٦٥م،ص١٦٣).

٦-منازل ذات طراز خاص

وتثير دهشة بكنغهام منازل بغداد الخاصّة التي لم ير فيها رواقاً واحداً فوق مدخل أيّ منها، إذ كانت كلّها إمّا مدوّرة أو مسطّحة تعلوها نقوش من الآجر المنحوت. ويقول: "تتألّف الدار من سلسلة من الشُّقق تنفتح على باحة داخليّة مربّعة، وبينما تُدعى الغرف المشيّدة داخل الأرض بالسراديب، ويأوي إليها الناس للتوقّي من وقدة الحرّ أثناء النهار، فإنّ الشُّرفات المكشوفة تُستعمل لتناول وجبة المساء، أو للنّوم فيها خلال الليل.(العزاوي، د.ت، ص٥٦٩).

ويُقدّر عدد سكّان بغداد باختلاف كبير ما بين خمسين ألفا إلى مائة ألف. ويقول إنها أقلّ نفوساً من حلب، لكنّها أكثر من دمشق. ولذلك فإنّ الرقم القريب من الحقيقة هو ثمانون ألفاً. ويلاحظ أن الموظّفين الكبار في الحكومة من مدنيين وعسكريين هُم من العوائل العُثمانيّة "عصمانلي" أو من أتراك إسطنبول، ومعظم التُجّار والباعة هُم من أصل عربي، في حين أنّ الطّبقات السُّفلى من الشّعب تتألّف من مزيج من الدم التركي والعربي والفارسي والهندي بكلّ صفاتهم المتباينة. وهُناك بعض اليهود والمسيحيّين الذين يحتفظون بطبقاتهم المميزة لهم، بينما يتألّف الغرباء في المدينة من الأكراد والفرس والأعراب، حيث يوجد عدد ملموس من كلّ من هؤلاء بصفة عامّة.

٧-أزياء متقشّفة

ويقول إن لباس أتراك بغداد يختلف عن لباس أضرابهم من أبناء الشّمال، وهو هُنا أقلّ من لباس أولئك زركشة وفخامة، كما تختلف جيادهم وأسلحتهم وأعتدتهم عمّا هو مستعمل في

المدن الكبيرة الأُخرى في الإمبراطورية. أما لباس التجّار فهو لباس عربي خالص، ولو أنّه بصفة عامّة أحسن نوعاً من لباس عرب الصحراء. ويُضيف: حيثما ذهبت في بغداد شاهدت العمائم البيضاء حتّى إنّ أوطأ طبقة من المسلمين تلبسها تمييزاً لعقيدتهم. وإنّ طريقة ارتدائهم العمائم جميلة، وذات ميزة خاصّة.(العزاوي، د.ت، ص٥٧٠)

وحول لباس اليهود والمسيحيين فهو، كما هو الحال في كلّ أنحاء تركيّا، يتألّف عادة من عباءات سوداء، وشالات من الجوخ (الكشمير) أو الحرير الأزرق لاستعمال العمائم. ويلفت إلى أن الفرس يحتفظون بلباسهم المعروف في بلادهم، والذي يُمكن به تمييزهم عن بقيّة الطبقات الأُخرى. أمّا الأعراب فهم يُعرفون بكوفيّاتهم المصنوعة من الحرير أو القطن، وعباءاتهم الصوفية الواسعة، والخنجر يماني الشّكل الذي يحملونه، ويُسمّونه بالجنبيّة. ويؤكّد رحّالتنا أن لباس نساء بغداد ساذج مثل لباس بقيّة أفقر القُرى فيما بين النّهرين. فالنّسوة من مختلف الطّبقات يلبسن أردية زرقاء شبيهة بما تلبسه الطّبقات الدُنيا في مصر، ويُغطّين وجوههنّ بقطعة من القماش الأسود القوي الشّفاف. وهذا الحجاب لا تلبسه النُّسوة الوافدات من الأرياف المُحيطة، واللّواتي يُشاهَدن هُنا بحشود كبيرة في الأسواق التي يتزوّدن منها بما فيها من مصنوعات.(جواد،١٩٦١م، ص٥٤٣).

ويقول: "فهُنّ يضعن فوق رؤوسهنّ غطاءً قطنيّاً ذا لون أحمر أو أصفر، وتظلّ وجوههنّ مكشوفة مُعرّضة للنّظر إليها، باستثناء الفم الذي يُغطّى أحياناً. وكما هو شائع بين بدو الصّحراء تكون شفاه هؤلاء النّسوة مصبوغة بالزُّرقة، كما تظهر خطوط وإشارات زرقاء على أجزاء مختلفة من وجوههنّ، وهُنّ يلبسن الأساور والخلاخيل الثّقيلة أيضاً، ويُحلّى الأنف إمّا بحلقة كبيرة، أو بقطعة مستوية مستديرة من الذهب تُلصق على ورقة الأنف، وتكون في حجمها وشكلها ومظهرها أشبه بالأزرار المتلألئة الجميلة التي يضعها الفلّاحون الإنكليز على صدرياتهم التي يلبسونها في أيّام الآحاد" .(ونكريك،١٩٤١، ص٦٤).

ثانيا: زيارته ووصفه الموصل

يتركز اهتمام بكنغهام في رحلته هذه في ثلاث نقاط اولها اهتمامه الشديد بوصف هيئات الناس الذين شاهدهم في مختلف المناطق التي مر بها وتحليل أخلاقهم وأوضاعهم وتباين أذواقهم في المأكل والمشرب والملبس والمسكن وفي السحنة والشكل ولاسيما أشكال الوجوه والعيون والشعور وألوانها، وهو في هذا الميدان فارس لا يباري بما عرف عنه من دقة الملاحظة وصدق الوصف وحسن التقدير وتلك صفة قلما تتوفر في الكثيرين من السواح، كما أنها تضفي على مشاهداته شيئا من الأمانة وعدم الغلو . فسرده لكثير من الحوادث التي تدلل على اختلال النظام وفقدان الأمن في كثير من مناطق العراق في الأرياف والمدن كانا من الأمور المألوفة في ذلك

العهد ولهذا فإن ما ذكره من تعرض القوافل والمسافرين لحوادث السلب كان من الأمور الشائعة فعلا في بلاد الشـــرق وأن كانت تثير دهشـــة أولئك الذين لم يجروبها.(مجمع اللغة العربية،٢٠٠٤م،ص٣٤٢).

والنقطة الثانية هي هذا التعمق في دراسة الآثار التي شاهدها في أطلال المدن التاريخية القديمة التي زارها ولاسيما بابل ونينوى وعقرقوف فهو في بحوثه واستطلاعاته عن هذه الأطلال يمكن أن يعتبر من علماء العاديات وأن لم يكن العلم باللغة الأشورية والبابلية والسومرية شائعا في أيامه بالصفة التي نعرفها اليوم.

لقد كان في زيارته لهذه الأطلال يستطلع أشكال الأبنية التي كانت قائمة فيها عن طريق قياسات أجراها للتلول المؤلفة من الأنقاض وفحص المواد التي شيدت منها تلك الأبنية ثم الإتيان بكل ما وقعت عليه يده من الشواهد التاريخية عنها ولاسيما كتب الرومان والآثاريين الذين سبقوه في مشاهدة تلك الآثار ووصفها.

فقد خصص صفحات في رحلته لوصف آثار بابل مضمنا إياه الكثير من كتبه السابقون له في هذا الموضوع ولم يكتف بذلك وحده بل عمد إلى أجراء مقارنة بين تلك الكتابات وتحديد ما هو أقرب إلى الصـــحة منها . ومثله هذا فعل بحثه عن أطلال نينوى وآثار عقرقوف وبعض الأماكن التاريخية في بغداد من أمثال جامع الخليفة وخان الأورتمه وقبر الســـت زبيدة وغيرها وتدور النقطة الثالثة من النقاط التي أهتم بها بكنغهام حل تحقيق بعض الأحداث التاريخية القديمة في العراق فقد أجرى تصـــويبات فيما يتعلق بمعركة اربيل التي وقعت بين دارا ملك الفرس والإسكندر المقدوني اليوناني سنة ٣٣١ قبل الميلاد والتي انتهت بهزيمة دارا وانفتاح العراق أمام الإسكندر و اجتياحه إمبراطورية فارس وبلوغه الهند حتى أصبح آنذاك سيد العالم ولم يكن عمره ليتجاوز ثلاثين سنة.

وكذلك أجرى نفس التصـــويبات عن معركة ســـنجار بين الإمبراطور الروماني تراجان والجيوش الفارسية وكيفية محاصرة « الحضر « عاصمة المملكة العربية الكبرى التي قامت هناك في القرن الرابع للميلاد. ولم يقتصر بكنغهام على تدوين مشاهداته وملاحظاته حسب وإنما أقتبس ما يؤيد تلك المشـــاهدات من كتب الرحالين الذين زاروا العراق قبله عن القدامى منهم من أمثال هيرودوتس وسترابو وسيلاريوس وبنيامين التطيلي واوتر الفرنسي ودانفيل واوليفسيه وكلوديوس ريج وراوولف الألماني والميجر رنل وغيرهم بالإضـــافة إلى مدونات بعض المؤرخين العرب .(العزاوي، د.ت،ص٥٦٩).

لقد عكفت منذ زمن على ترجمة رحلة بكنغهام هذه وقد انتهيت منها ولم يبق أمامي الأ تدوين الشروح والتعليقات الضرورية لبعض الأماكن والشواهد التاريخية وستجد طريقها للطبع في

فرصـــة قريبة أن شـــاء الله زار الرحّالة والكاتب والمفكّر الطوباوي البريطاني جيمس ســـيلك بكنغهام العراق في العام ١٨١٦، ضمن رحلة شملت مناطق واسعة من الشرق، وكتب مشاهداته المعمّقة بحيث شـكّلت رحلتُه مرجعاً مهمّاً عن تلك الحقبة المُظلمة من تاريخ منطقة المشـرق، لم يتح لقرّاء العربية الاطّلاع عليها بســـبب ندرة ما تُرجم له إلى لغة الضـــاد.(لونكريك، ١٩٤١م، ص39).

١-مظهر متناقض

يثني بكنغهام على المخطّط الذي رسمه الرحّالة الألماني كارستن نيبور لمدينة الموصل في ربيع العام ١٧٦٦، ويقول إنه "كان صـحيحاً بصـفة عامّة"، ولو أنّ مشـاهداته قد أعانته على أن يؤكّد صحّة مجمل ما ذكره دون التعمّق في ذكر تفاصيله.

ويبدأ بوصف المدينة عموماً كما يلي: "حين يدخل المرء المدينة من الشمال الغربي يبدو له أنّها كانت مُحاطة، في وقت من الأوقات، بخندق امتلأ الآن بالأتربة. أمّا السُّور فكان متهدّماً، وهو لم يعد يؤلّف سـوى عقبة تافهة أمام الجيش، المزوّد بالمدفعيّة، الذي يُحاصـر المدينة. ومع ذلك فقد يعتبر حـاجزاً يكفي لصـــدّ الأعداء الـذين كـانوا يحـاولون الظّهور أمـامـه.(العزاوي، د.ت،ص٥٧٠).

وينتقد المظهر العام للمدينة "فالشّوارع ضيّقة غير معبَّدة، واستقامتها ليست منتظمة، ولا توجد في المدينة، مع استثناء واحد، أسواق جميلة، ومساجد، وقصور، ممّا يتوقّع المرء أن يجده في مدينة لها مثل هذه السّعة، وأن يتخلّص، مصادفة، من التشابه المُملّ للأبنية العامّة؛ ذلك أنّ معظم المنازل مُشـيّدة من أحجار صـغيرة غير صـقيلة، بُنيت بالملاط، ورشـقت بالطّين، ولو أنّ البعض منها قد شُيّد بالآجرّ واللِّبن". ويضيف: "ولعلّ من أهمّ خصائص هذه المنازل أنّها شُيّدت على سـفوح مائلة، وعلى شَـبَه بالمعابد المصـريّة القديمة، بينما تكون الزّوايا أمام الشّـوارع مدوّرة غالباً كما يُشاهد ذلك في فتحات زوايا الشّوارع الضـيّقة في لندن. ونظراً لندرة الأخشـاب، وارتفاع أســعارها تبعاً لذلك، لم تُســتعمل إلّا قليلاً في الأبنية؛ ولذلك فإنّ معظم هذه الأبنية لها، بدلاً من السّـــقوف الخشـــبيّة، ســـقوف معقودة تقوم فوقها غُرَف، وســـطوح معقودة تســـند شـــرفاتها المنبسطة.(جواد،١٩٦١،ص٢١٣).

٢-بين النورماندي والقوطي والعربي

ويعقد بكنغهام المقارنات حول تفاصـــيل بيوت الموصـــل العمرانية مع بعض الطرز القديمة، حيث يقول: "مداخل هذه المنازل هي المنافذ المتصلة بالشّوارع في معظم الحالات، حيث تنفتح الشّـــبابيك على الباحات الداخليّة، متوّجة بطاق من المرمر المجزّع تمّ اقتطاعه من الجبال المجاورة للمدينة، وهو مشـيّد في بعض الحالات على الطّراز القوطي المُدبَّب، وفي حالات أُخرى

على الطراز النورماندي المستقيم. وما خلا بعض الحالات التي تبدو فيها الأقواس العربيّة التي استعملها العرب في صقلية، فإنّ الطرازين الآخرين أكثر انتشاراً. وتُحلّى قطع المرمر في بعض الحالات برسوم أزهار منحوتة، وهي متقنة الصّنع غالباً" (قديفة، ٢٠٠٦م،ص١٩٤).

وتلفت نظره زخرفة رآها على أركان هذه المداخل وسجفها التي تتكرّر، وهي تتمثل بما يُشبه رأس الكبش في القسم العلوي منه، ونقوش أُخرى من مثلّثين منطبقين على بعضهما بالتخالف، ونجمة في الوسط تُشبه الشّارات التي كان "الماسونيّون" يحملونها في أوروبّا، كما يقول (فراس، ٢٠١٣م،ص١٤٦).

ويشير إلى بيوت النسّاجين البسيطة التي يكون نصفها تحت الأرض، والجزء الأسفل منها مغلق أثناء النهار؛ حيث تقوم فيها المناسج، بينما يرقدون على سطوحها أثناء الليل. ويقول إن "الكثير من هذه السّطوح مسوّرة بجدران تحجب الذين ينامون فيها من تعرّضهم للأنظار. ولهذه المنازل منافذ مصنوعة من أسطوانات فخاريّة مُجوّفة، وفيها مزاغل؛ لتثبيت البنادق في الجدران استعداداً لأسباب الدفاع."

٣-مقاهٍ وأسواق

وفي وصفه للأسواق، يقول إنها وإن لم تكن مثل أسواق القاهرة في جمالها، إلّا أنّها تتميّز عنها بشيء واحد هو كثرتها ووفرة ما فيها من الحاجات والضروريات التي تأتيها من المناطق الجبليّة. ولكنه يعود لينتقد وضع هذه الأسواق المفتوحة والمُغطّاة بسقوف، فهي قذرة بصفة عامّة، وغير متناسقة، ممّا تُشاهَد أمثاله في هذا الضرب من المدن الشرقية. ويضيف: "لا توجد سوى سوق واحدة تُباع فيها السّلع الغالية، وهذه أفضل الأسواق في بنائها وتصميمها، وهي تغصّ على الدوام بأصناف عديدة من السّلع الثّمينة، ممّا تُنتجه أوروبا والهند."

ويلاحظ بكنغهام أن المقاهي في الموصل كثيرة وواسعة بوجه عام، والبعض منها قد يحتلّ أحد الشّوارع بطوله، ويمتدّ زهاء مئة يارد، حيث تُصفّ المقاعد على جانبي الشارع الذي يُظلّله سقف من الحُصر... ويُقدّر عدد الحمّامات بحوالي الثّلاثين، "ومع أنّني قصدت بعض الحمّامات الكبيرة، إلّا أنّني لم أر فيها ما يُمكن مقارنته بحمّامات القاهرة أو دمشق، ويبدو أنّ طريقة الاغتسال في حمّامات هذه المدن متشابهة، ولا أهميّة للتفصيلات المتعلّقة بصاحب الحمّام أو الخدم الذين يعملون فيه، وهو أمر شائع في المُدن الكُبرى بمصر وسوريا" (نيبور،١٩٦٥م،ص٦٤).

ويقول إن عدد المساجد في المدينة يبلغ حوالي خمسين مسجداً، منها ثلاثون صغيرة واعتياديّة، وعشرون كبيرة. ويشير إلى أن مآذنها متساوية في الارتفاع، مُشيّدة بالآجرّ، ومدوّرة الشّكل من الأعلى، وتقوم على قاعدة مربّعة من الأسفل، وهي ترتفع من القاعدة أشبه بعمود هائل تُغطّي سطحه الخارجي زخارف عربيّة رائعة من آجر ناتئ وبارز في البناء ذاته يزيد من تأثيره في نفوس الناظرين (العزاوي، د.ت، ص٥٧٢).

٤-أوضاع المسيحيين

وحول المسـيحيين وكنائسـهم في المدينة يقول: "يبلغ عدد الكنائس حوالي أربع عشـرة كنيسة، خمس منها تخصّ طائفة واحدة من الكلدان، وأربع لطائفة أُخرى، وثلاث للسّريان، وواحدة لليعاقبة (كما يسـمّونهم هُنا بهذا الاسـم)، وواحدة للروم الكاثوليك، وذلك حسـب النسـق التّالي؛ الكلدان الأولى: مسـكتا، مار شـمعون الصّـفا، مار كوركيس، (بثيون)، ومريم العذراء. الكلدان الثانية: مار أشـعيا، مار قرياقوس، مار يوحنّا، مار جرجيس. السّـريان: الطاهرة الفوقاني، طاهرة الحجّـارين، ومـار تومـا. اليعـاقبـة: مـار حوديني. الروم الكـاثوليـك: مريم العـذراء ".(قـديفـة، ٢٠٠٦م،ص٦٩).

٥-قباب "الكنيسة الرسولية الدومينيكية" في الموصل

ويصف الرسوم الداخلية في كنيسة مريم العذراء الكاثوليكية، ويقول إنّها شُيّدت على ذات الطراز الذي شُيّدت به كنيسـة القدّيس يعقوب المُخرَّبة في نصـيبين. ويضـيف: "أطواق الممشـى فيها من الطراز العربي الاعتيادي المُدبَّب، والأنواع الصـغيرة من هذه الأطواق مفرطحة بالشّـكل المألوف في الطراز السـكسـوني، بينما تُحيط بصـحن الكنيسـة أفاريز من زخارف عربية وتركية متدلية، وهي ما تُعرَف بالمقرنصـات. وأصـغر هذه الزخارف وإن كانت اعتيادية في مظهرها إلا أنّها ليست متشابهة في تفاصيلها. والأقواس المفرطحة المقرنصة التي رأيناها في 'مسجد إبراهيم الخليل' في أورفة تُشاهَد في هذه الكنيسة أيضاً، وفيها زخارف عربيّة بشكل ظاهر، بينما نقشت الكنايات المُحيطة بها بالخطّ السّـرياني، ولهذا يُمكن القول بأنّ هذه الكنيسـة من أقدم الأبنية في هذا الجزء من البلاد، وهو قول يلقي الظلال بدلاً من النّور على الأسـئلة التي ما تزال تُطرَح عن أصل البناء القوطي، وهل أنّه نشأ في الشّرق أم في الغرب (كوك،٢٠١٤، ص٥٩٣).

ومن غريب ملاحظات بكنغهام أنه لم يرَ في الاختلافات العقائدية بين الطوائف المسيحية في الموصـل ما يُرضـيه، إذ يقول: "يبدو أنّ الأطفال يسـيرون على خُطى آبائهم، وليس فيهم من يُتعب نفسـه في معرفة العقيدة التي يؤمن بها جاره؛ لأنّهم يعتقدون أنّ الخلاف القائم في عقائدهم لا مجال للمصـالحة فيه، ولذلك فهم لا يحاولون التوفيق بين هذه العقائد أو توحيدها . (جواد،١٩٦١م، ص٧٨).

وحول السكان وأعدادهم، يقول رحالتنا: "يظنّ أهل الموصـل أنّ عددهم يتجاوز مائة ألف نسـمة، لكنّني بعد إحصـاء غير دقيق قمت به، ومقارنة لأرقام مختلفة أجريتها، أعتقد بأنّ عدد السـكّان أقلّ من نصـف ذلك الرقم". ويشـرح: "يؤلّف المسـلمون القسـم الرئيس من السُـكّان في المدينة، وهُم من نِسَب متساوية من العرب والأتراك والأكراد. وهُناك حوالي ثلاثمائة عائلة يهوديّة، لهم بيعة يتعبّدون فيها. أمّا الطوائف المسيحيّة فتتألّف من أعداد نسبيّة. فالكلدان، وهُم لا يختلفون عن الكاثوليك إلّا قليلاً، يُعتقد أنّ عددهم يبلغ حوالي ألف عائلة، والسّـريان حوالي خمسـمائة عائلة، واليعاقبة حوالي ثلاثمائة عائلة" .(العزاوي،د.ت،ص٥٧٤).

٦-الوالي وسلطته

ويؤكّد أن والي الموصل باشا يحمل رتبة طوغتين، ولا تمتدّ حدود إقليمه أكثر من بضعة أميال خارج المدينة، لكنّه، وقد تلقّى أمر تعيينه من السّلطان في الأستانة، فهو يعمل مستقلّاً عن باشوات حلب، وأورفة، وبغداد. والباشا الحالي، واسمه حامد، يتمتّع بشعبيّة عالية، وباحترام جميع الطبقات، ويُعدّ حتّى في نظر الذين يحكمهم سيّداً سموحاً، كما يقول. أما القوّة العسكرية التابعة لهذا الباشا فيقول إنها لا تتجاوز ألف رجل، ومعظم هؤلاء من الخيّالة. ويعمل نصف هذا العدد منهم في قصر الباشا أو منزله الذي شُيّد واسع الأرجاء، وضمّ دواوينه ودوائره، حتّى بدا وكأنّه إحدى القرى الصّغيرة . (كوثر،٢٠١٤م، ص١٩٦).

ويصف الاستعراض الفخم الذي يُقام في الموصل أحياناً، حيث تشترك فيه جياد عربيّة جميلة مطهّمة بالمخمل والذهب، ويمتطي صهواتها فرسان من الأتراك، يرتدون أردية فضفاضة ذات حواش ملوّنة، وأردان ثمينة، وشالات هنديّة وغيرها؛ للتدليل على الأُبّهة والثّراء. ويلاحظ أن هذه المظاهر تحمل مفارقة بارزة تجاه الأبنية البائسة بصفة عامّة .(العزاوي،د.ت،ص٥٧٦).

ولا ينسى بكنغهام الحديث عن تحصينات المدينة التي تمتدّ خارجاً من سور مُغلق ليست فيه مدافع، أمّا من ناحية النّهر فتقوم إحدى القِلاع بالدفاع عن المدينة. وهذه القلعة صغيرة مُخرّبة تقع على جزيرة اصطناعيّة نشأت عن امتداد مياه دجلة من الضِّفاف التي تقع عليها القلعة إلى الخندق العميق الذي يُحيط بها. وهي تقع على مقربة من جسر القوارب الذي يعبر به النّهر. وهي مثلّثة الزوايا، مشيدة من الآجُرّ، وليس فيها سوى مساكن قليلة للجنود الذين يؤلّفون الحامية فيها. وقد انتشرت على مقربة من القلعة بضعة مدافع من البرونز، أُلقيت هُناك مُهملة وغير صالحة للاستعمال، يعود بعضها إلى العام ١٥٢٦.

٧-بضائع متنوعة

ويتحدّث رحّالتنا عن الأوضاع التجارية للمدينة التي كانت يوماً محطّة مهمّة من محطات التجارة في الشرق القديم، حيث يقول: "لقد تقلّصت تجارة الموصل التي اشتهرت في الأوقات السابقة إلى درجة منخفضة جدّاً. ومع ذلك لا يزال فيها بعض التجّار الذين ينتقلون منها إلى حلب يحملون معهم عفص كردستان، وبعض السّلع الهنديّة التي تصل من البصرة؛ ليتمّ تبادلها في سوريا مع السّلع الأوروبيّة. وكذلك تصل السّلع الهنديّة أيضاً إلى 'طوقات'، والأجزاء العُليا من آسية الصّغرى، حيث يجرى تبادلها مع النّحاس الذي يُرسل به من هُناك إلى بغداد". ويلفت إلى أن الصّناعة الوحيدة التي تُمارس في الموصل على نطاق ما هي صناعة الملابس القطنيّة التي تُصبغ باللون الأزرق؛ لإكساء الطبقات الفقيرة .(لعامري، ٢٠١٠ م، ص١٢).

٨-الناس والعادات

ويستطرد في وصف سكّان الموصل، أذ يلاحظ أنّ "تقاطيع وجوههم تميّزهم عن غيرهم تماماً، فكأنّهم من عنصر واحد تقريباً، وقد اختلط الواحد منهم بالآخر، وتمازج معه منذ زمن طويل. ذلك أنّ شكل الوجه مدوّر يختلف عن وجوه العرب أو الأتراك، وشعر الرأس أسود غالباً، والعيون صغيرة حادّة نفّاذة، بينما تكون هيئة البشرة مشابهة لبشرات سُكّان جنوبي إسبانيا". بحسب تعبيره(العامري، 2010م، ص12).

أما الألبسة، فيقول إن الصغار من الأولاد يلبسون غالباً قرطاً ذهبيّاً في إحدى الأذنين، بينما تلبس الفتيات حلية أشبه بالزر مرصّعة بأحجار صغيرة من الفيروز، مُعلّقة بثقب في الأنف. ويرتدي الرجال اللباس التركي، ما خلا العمائم والطرابيش العالية، مثل أهالي سوريا، بدلاً من "القاووق" التركي، والسّراويل المصنوعة من نسيج صوفي جميل عِوضاً عن الثياب القطنيّة. وتلبس النّساء رداءً واقياً أزرق اللّون، أشبه بما هو مألوف في مصر وسوريا، ويستعملن حجاباً من نسيج شعر الخيل الأسود، يُغطّي الوجه كلّه، وبذلك يظهرن بمظهر لا يُثير الاهتمام غالباً. وتُشاهد في معظم أيدي مختلف الطبقات مراوح مصنوعة من الحُصُر تشبه الأعلام المربّعة الصّغيرة ولها مقابض، وهي من النّوع المعروف في الشّواطئ العربيّة والحبشيّة من البحر الأحمر. أمّا أكثر النّاس ثراء فإنّهم يستعملون المراوح المصنوعة من الرّيش توضع وسط سطحها مرآة صغيرة، وتعلّق من ذراعها بشريط .(العزاوي،د.ت،ص٢٧٧).

ويلاحظ إن "اللغة التي يتحدّث بها أهل الموصل تختلف عن لغة أهل القاهرة، وحتّى أهل حلب. ففيها مزيج من الكلمات التركيّة والفارسيّة والهنديّة. وطرائق السكّان وكثير من المظاهر الأُخرى التي شاهدتها، سبق لها أن ساعدتني على تفهّمي لهذا البلد."

ثالثا: زيارته ووصفه البصرة

عقد فصلا من كتابه عن البصرة واصفًا أهميتها التجارية كميناء رئيس في الخليج العربي ونشر جعفر الخياط موضوعًا حول هذا الفصل في العدد الثاني من مجلة المعلم في شباط (فبراير) ١٩٦٧ م التي كانت تصدرها نقابة المعلمين في البصرة مشيرًا إلى وصف بكنغهام للبصرة بأنها محاطة بأسوارها المبنية باللبن غير المشوي في مربع متطاول طوله ما بين شرق الشمال الشرقي وغرب الجنوب الغربي، لعل أهم النقاط التي يستفاد منها في ذلك الموضوع ما يلي: كانت أسوارها غير منيعة ومتناسقة في نظر الزائر الغربي ولهذه الأسوار خمسة أبواب كبيرة هي: باب المجموعة وباب ألسراجي وباب الزبير وباب الرباط بالقرب من المقام وباب بغداد المؤدي إلى مركز المدينة مباشرة حيث يزدحم السكان وتتكاتف البيوت (لعامري، ٢٠١٠م، ص١٢).

للمدينة ثلاثة جداول كبيرة تتفرع من شط العرب وتخترق أجزاءها المختلفة فيستفاد منها لري الأراضي المحيطة بالبلدة ونقل البضائع والسلع مع سد حاجة الناس وهي انهر (الرباط والعشار والسراجي) وصف بكنغهام ظاهرة المد والجزر المعروفة في تلك الأنهر والتنقل بواسطة الابلام الصغيرة فيها وأشار إلى وجود القفف التي عرفها العراقيون والى زورق خاص لشحن الأحمال الثقيلة فيه كان يطلق عليه (الدونلق).

كان الداخل من شط العرب في العشار أو النهر الأوسط كما يسميه متجهًا إلى البصرة القديمة يمر من صدر ضيق للنهر تقوم في يساره قلعة مدورة الشكل ومسجد له منارة صغيرة من الجهة اليمنى بعد ذلك عدد من البيوت والأبنية في جهتي النهر الأبنية على الجهة اليسرى كانت عبارة عن سكلات الخشب والألواح في الغالب ومخازن كبيرة للحاجات المطلوبة لبناء السفن والزوارق وكان يوجد فيها جهة المقام مبنى دائرة الجمارك ومقهى مع عدد من المساكن وان

الضفة اليمنى من صدر العشار سميت بالمقام لان قائم مقام البصرة كان يقيم فيها أما الضفة المقابلة أو اليسرى فكانت تسمى بالمناوي كانت البصرة في عهد حسين باشا بن علي باشا افرو سياب تبعد عن الشط مسافة ميلين وكانت المناوي قرية منعزلة تقوم مقام الميناء الذي ترسو فيه السفن غير ان حسين باشا عمد إلى تمديد سور البصرة الى حد شط العرب وادخل قرية المناوي ضمنه ثم حصنت بعد ذلك بسور حصين يدور حوله .(لعامري،٢٠١٠م، ص١٣).

كان الداخل إلى البصرة القديمة من شط العشار يجد على طول الضفتين طريقين عامين يمتدان إلى المدينة نفسها وبجانب الطريق من الجهة الشمالية كانت تمتد البساتين المكتضه بالنخيل وغيرها من الأشجار إلى مسافة تزيد على نصف ميل، وكانت بيوت البصرة القديمة تحتشد في الجهة الجنوبية وعلى مسافة ميل يقع المكتب التجاري البريطاني كأنه قلعة مدمرة تطل على النهر بشبابيكها المقوسة وبابها وحرسه وسارية علمها.(كوثر، ٢٠١٤م، ص١٤).

بعد دائرة الجمارك كان يمتد جسر يؤدي إلى باب بغداد وكانت هناك مساحات تزرع بالقمح والرز والنخيل، وبالنظر لشدة الحاجة إلى الأحجار فأن أسوار البصرة ومعظم بيوتهم مبنية باللبن المجفف بحرارة الشمس أما الأبنية المبنية بالطابوق المفخور فهي لا تتجاوز أصابع اليد مثل بناية السراي والمكتب التجاري البريطاني والمسجد وبعض البيوت العائدة إلى الأثرياء.

عدد نفوس البصرة كان يختلف باختلاف الأزمنة ما بين ٥٠٠ الف و ٥٠ ألف نسمة وقد نزل العدد إلى الحد الأدنى على اثر الطاعون الذي داهم المدينة عام ١٧٧٣ فذهب ضحيته ٣٠٠ الف نسمة وكان من سكنه البصرة الأتراك والأرمن والإيرانيون واليهود والهنود والمسيحيون الكاثوليك والصابئة وبعض الكرد، وتختص الطبقات العليا من السكان العرب بالإعمال التجارية والطبقات الدنيا كانت عمالا وفلاحين، وكان اغلب الأتراك موظفين في دوائر الحكومة وكان مستلم البصرة من أهلها لكنه من أصل تركي ونظرًا لبقائه عدة سنين في اسطنبول ولاشتراكه في عدة حروب جرت مع الروس فكان يعد تركيًا لا عربيًا وكان الموظفون المحيطون به من أصل تركي في الغالب من المولودين في مدن أخرى مثل الموصل وبغداد وكركوك وكانوا يحتفظون بلباسهم التركي .(جميل، ١٩٨٢، ص١٩٥).

وبالرغم من قلة عدد الأتراك فأنهم كانوا يسيطرون على المدينة بقوة بمساعدة عدد قليل من الجنود الكرج والكرد والعرب والإيرانيين ويقدر الخيالة منهم بحوالي ١٥٠٠ خيال وكان المشاة يؤلفون خمس سرايا تتكون كل واحدة من ١٠٠ حامل بندقية وكان هناك خمسون من أحسن حملة البنادق اختيروا حرسًا خاصًا للمتسلم ويتميزون بلباس خاص يتألف من سترة حمراء وسراويل زرقاء وعمائم بيضاء لا يتجاوز عدد الأرمن في البصرة حينذاك ٥٠ اسرة وكانوا من قبل اكثر من هذا العدد وكانوا يمتهنون المهن المالية والتجارية في الغالب وهم أمناء ونشطاء في مهنتهم وكانت لهم كنيسة صغيرة، أما اليهود فيقدرون ب ١٠٠ أسرة يمتهنون التجارة وأعمال السوق والنصارى والكاثوليك اقل منهم بحدود ٢٠ اسرة بينهم نازحون من حلب وبغداد وكانوا يتعاطون التجارة أيضًا ولهم كنيسة ترتبط بمستشفى الكرملين في البصرة .(العامري، ٢٠١٠، ص١٤).

*تتألف طائفة الصـابئة من ٣٠ أسـرة وهم يلبسـون لباس العرب ويتزينون بالزي العربي ومركزهم الرئيس القرنة التي كان يقيم فيها رئيسـهم الديني مع ١٠٠ من أسـرهم وكان قسـم منها في سـوق الشيوخ والاحواز وتستر ودزفول.

*وكان الهنود المقيمون في البصرة من طائفة البانيال في الغالب ويشتغلون تجارًا ودلالين وكلاء اسـتيراد وهم مثل اهل الارض يتمتعون بتقدير المقيم البريطاني فيها وحمايته ومعظمهم له علاقة بشـركة الهند الشـرقية ومكتبها التجاري البريطاني وان جنود السـيادة المسـتجلبين للمكتب المذكور كانوا من الهندوس ويبلغ مجموع الهنود كلهم حوالي ١٠٠ شخص (كنغهام، ١٩٨٦، ص ١٢٨).

*أما المكاتب التجارية الأوربية في البصرة فلم يبق منها حينذاك سوى المكتب الفرنسي والمكتب البريطاني، والمكتب الفرنسـي لم يبق فيه سـوى العلم الأبيض لان البارون فيكتور الذي كان مسـؤولا عنه كان يقيم في بغداد، وتوجهت باخرتان من جزيرة موريشـيوس لتزويده بالبضـائع لكن مصـيرهما كان مفجعًا لهجوم القواسـم (القراصـنة) في رأس الحد عليها وقضـوا عليها. (العامري، ٢٠١٠ م، ص١٥).

*يرجع منشأ المكتب التجاري البريطاني إلى زيارة السفن الانكليزية إلى البصـرة عام ١٦٤٠ وان بنايته قد تبدلت عدة مرات بين وسـط البصـرة والمعقل والطرف الجنوبي من نهر العشـار، وكانت للمؤسـسـة العائدة لشـركة الهند الشـرقية نفقات تصـرف عليها تصـل إلى حوالي ٥٠٠٠ جنيه إسترليني في السنة من مهمتها تأمين إيصال البريد بسلامة خلال الحرب وحماية التجار القادمين من الهند.

الخاتمة

في خاتمة رحلة الإنكليزي جيمس سيلك بنكغهام إلى العراق، يتجلى بوضوح تأثير الرحالة ووصـفه لأحوال هذه البلاد الغنية بالتاريخ والثقافة. يعكس سـيلك بنكغهام بصـدق ودقة فريدة من نوعها تفاصـيل الحياة والمجتمع والمناظر الطبيعية في العراق. تحمل خاتمته إشـارات متعددة تعكس عمق تجربته وتأثيرها على فهمه للعراق وثقافته.

فقد رُصِـدت الطبيعة الجذابة للبلاد بتفاصـيلها المتنوعة، مع تصـوير مظاهرها الفريدة وتنوعها، من جبالها إلى أنهارها وصـحاريها. كما لاحظ سـيلك بنكغهام تنوع الثقافات والتقاليد في العراق، وتأثيرات العصور المختلفة على مجتمعاتها.

ومع ذلك، لم يتجاهل سـيلك بنكغهام التحديات التي تواجه العراق، سـواء كانت اجتماعية أو اقتصـادية أو سـياسـية. قدم وصـفًا دقيقًا لأحوال الناس وظروف حياتهم، والتحديات التي يواجهونها يوميًا.

في النهاية، يظهر سـيلك بنكغهام كرحالة يمزج بين الفضـول الثقافي والوعي الاجتماعي، ممـا ينعكس في توثيقـه الـدقيق لتجربتـه في العراق. ومن خلال رحلتـه، يمكن للقراء أن يفهموا العراق بعمق أكبر، ويستكشفوا تاريخها وحاضرها بأسلوب متنوع وشامل، مما يجعل خاتمتها تعبر عن رؤية متوازنة ومتكاملة لهذا البلد الرائع والتاريخي.

المصادر

بكنغهام، جيمس .(1986) .*رحلتي إلى العراق: الجزء الأول* (ترجمة سليم طه التكريتي). المجمع العلمي العراقي، مطبعة أسعد. (الأصل نُشر عام ١٨٢٧).

جواد، مصطفى، وآخرون .(1961) .*بغداد* .نقابة المهندسين العراقية.

صالح، بشرى موسى .(1987) .*الصورة الفنية في نقد الشعر العربي الحديث* (أطروحة دكتوراه). كلية الآداب، قسم اللغة العربية، جامعة بغداد.

صليبا، جميل .(1982) .*المعجم الفلسفي* (ج١، ج٢). دار الكتاب اللبناني.

العامري، شذى عباس .(2010) .*التواصل في عمارة الفضاء الرافديني* (أطروحة دكتوراه). قسم هندسة العمارة، كلية الهندسة، جامعة بغداد.

العزاوي، عباس. (دون تاريخ) .*موسوعة تاريخ العراق بين احتلالين: حكومة المماليك* (المجلد السادس). الدار العربية للموسوعات.

فائق، سليمان بك .(2012) .*تاريخ المماليك الكوله مند في بغداد* (ترجمة محمد نجيب أرمنازي). دار ضفاف للطباعة والنشر والتوزيع.

قديفة، مالك صبري .(2006) .*صورة العمارة العراقية قبل الإسلام* (أطروحة دكتوراه). قسم الهندسة المعمارية، كلية الهندسة، جامعة بغداد.

كوثر، خولة كريم .(2014) .*الصورة البصرية لمدن المستقبل* (رسالة ماجستير). قسم هندسة العمارة، الجامعة التكنولوجية.

كوك، ريجارد .(2014) .*بغداد مدينة السلام: الجزء الأول* (نقله إلى العربية فؤاد جميل ومصطفى جواد). دار ومكتبة عدنان. (الأصل نُشر عام ١٩٢٧).

لونكريك، ستيفن هيمسلي .(1985) .*أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث* (ترجمة جعفر الخياط، الطبعة السادسة). مكتبة النهضة العربية. (الأصل نُشر عام ١٩٤١).

مجمع اللغة العربية .(2004) .*المعجم الوسيط* .مكتبة الشروق الدولية.

مجيد، فراس علي .(2013) .*تتابع البنى الحضرية والمعمارية لمدينة بغداد عبر تاريخها* (رسالة ماجستير). قسم الهندسة المعمارية، كلية الهندسة، جامعة بغداد.

نيبور، كارستن .(1965) .*رحلة نيبور إلى العراق في القرن الثامن عشر* (ترجمة محمود حسين الأمين). وزارة الثقافة والإرشاد، مديرية الثقافة العامة، سلسلة الكتب المترجمة، دار الجمهورية للطبع والنشر.

ولستيد، جيمس ريموند. (دون تاريخ) .*رحلة إلى بغداد في عهد الوالي داود باشا* (ترجمة سليم طه التكريتي). مكتبة النهضة العربية ومكتبة دار إحياء التراث العربي.

References:

Al-Ameri, S. A. (2010). Communication in Mesopotamian architectural space (Doctoral dissertation). Department of Architecture, College of Engineering, University of Baghdad.

Arabic Language Academy. (2004). Al-Mu'jam Al-Waseet [The concise dictionary]. Al-Shorouk International Library.

Buckingham, J. (1986). My journey to Iraq: Part One (S. T. Al-Tikriti, Trans.). Iraqi Scientific Academy, Asaad Press. (Original work published 1827)

Buckingham, J. (n.d.). My journey to Iraq in 1816 (S. T. Al-Tikriti, Trans.). Asaad Press, Al-Basri Publishing.

Cook, R. (2014). Baghdad: The city of peace – Part One (F. Jamil & M. Jawad, Trans.). Adnan Publishing and Library. (Original work published 1927)

Faiq, S. B. (2012). The history of the Kulahmand Mamluks in Baghdad (M. N. Armanazi, Trans.). Dhifaf Publishing and Distribution.

Jawad, M., et al. (1961). Baghdad. Iraqi Engineers Syndicate.

Kawthar, K. K. (2014). The visual image of future cities (Master's thesis). Department of Architecture, University of Technology.

Longrigg, S. H. (1985). Four centuries of modern Iraq history (J. Al-Khayyat, Trans., 6th ed.). Al-Nahda Al-Arabiya Library. (Original work published 1941)

Majid, F. A. (2013). The sequence of urban and architectural structures of Baghdad throughout its history (Master's thesis). Department of Architecture, College of Engineering, University of Baghdad.

Niebuhr, C. (1965). Niebuhr's journey to Iraq in the 18th century (M. H. Al-Amin, Trans.). Ministry of Culture and Guidance, Directorate of General Culture, Republic Press.

Qudaifa, M. S. (2006). The image of Iraqi architecture before Islam (Doctoral dissertation). Department of Architecture, College of Engineering, University of Baghdad.

Saleh, B. M. (1987). The artistic image in the criticism of modern Arabic poetry (Doctoral dissertation). College of Arts, Department of Arabic Language, University of Baghdad.

Saliba, J. (1982). Philosophical Dictionary (Vols. 1 & 2). Dar Al-Kitab Al-Lubnani.

Wellsted, J. R. (n.d.). A journey to Baghdad during the era of Wali Dawood Pasha (S. T. Al-Tikriti, Trans.). Al-Nahda Al-Arabiya Library and Dar Ihyaa Al-Turath Library.